نثر ابن شهيد

بقلم الدكتور زكى مبارك

١ — اتفق من ترجموا لابن شهيد على وصفه بالبراعة فى الانشاء ، فقال ابن حيان : « كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجرى فى البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لا ما شاء من نظمه ونثره فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له رحمه الله فيما بلغنى بعد موته كتاب يستعين به على صنعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه وكان فى تنسيق الهزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وبقاها فى الناس خالدة . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشى كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه » (١) .

وقال الثعالبى : » فنثره فى غاية الملاحظة ، وشعره فى غاية الفصاحة » (٢)

وقال ابن بسام : « وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ، ونوادره القصار والطوال وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويحن معه الكبير إلى صباه » (٣)

وقال الحناط وهو يهاجمه : « الأسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شاغلاً بأفقه ، ثانياً من عطفه ، مخيلاً أنه أحرز السبق فى الآداب ، وأوتى فصل الخطاب ، فهو يستصغر أساتيذ الأدباء ، ويستجهل شيوخ العلماء

وابن اللبون إذا ما لز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس » (٤)

وهذا الآراء التى نقلناها عن ابن حيان والثعالبى والحناط ، تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد ، وتدلنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان . ولو انتقلنا إلى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتوناً أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظم والنثر ، والتفوق البالغ على كتاب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٩٤ (٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٤ (٣) الذخيرة ج ١ ص ٩٤.
(٤) الذخيرة ص ٢٣٢

المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بميار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانىء الأندلسى فأجاب « رحى تطحن قروناً »، وهو جواب يدل على فهم وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير. وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد ، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقلة فى غير تمع ولا غناء. ويسوءنا والله أن يكون ذلك ما نراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم ، ورقة الطبع ، وسلامة الذوق ؛ ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا ما بقى منه أكثر من عشرين مرة ، فلم نزدد إلا اقتناعاً بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين.

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب، بألوان من الفن كان لها فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية ، واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل عبرة موشاة، تؤدى فى عالم النثر ما كانت تؤدى التقائض فى عالم الشعر ، فوقع له مع الافليلى والحناط وغيرهما مناقرات كان لها فى مجالس المغرب دوى شديد. هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يتارع خصومه بالشعر ، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيى فى بلاده معارك نثرية كالمعارك التى كانت تقع فى الشرق بين أمثال الخوارزمى وبديع الزمان . وفى هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعانى فى مختلف الأغراض، ولكنه انحدار بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فان الهجاء كما تسينه الطبيعة العربية لا يؤدى إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما فى نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القارىء بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التى يوقن المتطلع بأن فيها كنوزاً ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشد من الذهب الدفين . ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلى فلم يقل شيئاً ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الطيبة فى وصف الافليلى :

« ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر » (١) .

٥ — غير ان ابن شهيد لا يظل فى جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فان له أحياناً يصفح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

« من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار . جد كبا ، وحسام نبا ، وآمال تمزقت أيدى سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها اليك ، كنا قبل أن ترمى

(١) الذخيرة ج ١ من ١٢٣

بنا النوى مراميها ، وتلقى علينا الخطوب مراسيها ، وتمخضنا الأيام مخضاً ، وتركض بنا الليالى ركضاً ، ترى صحبه ، وحليفى صبوه ، قد تخلينا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملتقى كثب ، والزمان غر ، وحواصلنا صفر ، تترنم ترنم الحمام ، على زرق الجمام (١) ، ثم ألقت الأيام علينا بكلكل ..... فنثرنا بكل فج عميق ، وأفق سحيق ، ونفحت عليك رياح السدو ، وجادتك التى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، واقترشت لبدة العواء (٢) ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وتلعنت بالسماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الاخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتبة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبتنا فيما لديك ، وهيهات ! يأبى ذلك كرم محض ، وهمة عليا ء نالها خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل بالرؤساء ، ويجاذب العظماء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم ، فأطويت على ود ، وثبت على صحة عهد ... الخ » (٣)

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

« لما قدم زهير الصقلبي فتى بني عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عني وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى تقيل فسرت اليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولي وقاموا جميعاً إلي ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساحباً لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن في أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط ـ وكان كثير الاخاء لي ، جالباً في المحافل ما يسوء إلي ـ : الوزير حضره قسيم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أني المراد ، فأنشده وهو :

مرض الجفون ولثغة في المنطق

فأخذت القلم وكتبت بديهاً :

مرض الجفون ولثغة في المنطق ... شيئان جر امشق من لم يعشق

من لي بألثغ لا يزال حديثه ... يذكي على الأكباد جمرة محرق

(١) الجمام : المياه الكثيرة ، والمفرد جم ؛ وهو في الأصل الكثير من كل شيء.

(٢) العواء : من منازل القمر

(٣) الذخيرة ج ١ ص ١١٥

ينبي فينبو فى الكلام لسانه فكأنه من خمر عينيه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له فى مهرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا على، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديه، وسألوني أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره ، وذكروا أن إدريس هجاء وأفحش، فلم أستحسن الافحاش ، فقلت فيه معرضا اذ التعريض من محاسن القول . (١)

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد ، وحدثنا فى « التوابع والزوابع » أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها ، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب ، ورسالته فى الحلواء ، وكلماته فى وصف جارية ، ونعت الماء والثعلب والبرغوث والبعوض . وهذه الرسائل فى جملتها تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة ، ولكنها خالية من الروح . ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقد الكلام ، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة ، وصاحبوا الأفذاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق !

وأجود ماوقع له فى تلك الرسائل « المستجادة » قوله فى وصف ماء ساف :

كأنه عصير صباح أو ذوب قمر لياح

وقوله فى وصف البعوض :

« تنقض المراثم وهى منقوضة ، وتعجز القوى وهى بعوضة ، ليرينا الله عجائب قدرته ، وضعفنا عن أضعف خليقته » (٢)

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تخييرا لفقيه نهم لقيه فى المسجد الجامع ، فلما طالعوا الحلواء « اضطرب به الألم ، واستخفه الشره ، فدار فى ثيابه ، وأسال من لعابه ، وازور جانبه ، وخفق شاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، فالفالوذج « مجاجة الزنابير خالطها لباب الحبة ، فجاءت أطيب من ريق الأحبة » والخبيص « جليد سماء الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه اللحظة ، وتدميه اللفظة » ، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : « فأمرت الغلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التى أطلقته ، وتحتوى على ضروبها التى صرعته ، فجاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها بجرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويجاحش بفخذيه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك حكما ، فجعل يقطع ويبلع ، ويوجر ماء ويدفع ، وعيناه

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إفحاش لم نر روايته لأننا لا نستجيز رواية الهجاء المهتوك الذى يجرح الأدب والذوق. وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١

(٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٢

تبصان ، كأنهما جرتان ، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان. وأنا أقول على رسلك يافلان ! البطنة تذهب القطنة ! وهو يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جامرها ، والحق أولها بآخرها ، فهبت منه ريح عقيم ، قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، تترتنا شذر مذر ، وفرقتنا فى كل شعب شفر بفر ، فالتحمنا منه الظربان ، وصدق فيه الخبر العيان » (١)

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية ، والنكتة فى الرسالتين متشابهة ، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول ، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم ؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ؛ ولننظر كيف يقول وقد استدرج سوادياً بالكرخ : (٢)

« فقلت : فهلم إلى البيت نصيب غداء ، أو إلى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب . فاستفزته حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شواءاً يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسايل جوذابه مرقا (٣) ، فقلت : أبرز لأبى زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر من تلك الاطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ، وشيئاً من ماء السماق (٤) ، ليأكله أبو زيد هنيئا ؛ فأخى الشواء بساطوره ، على زبدة تنوره ، فجعلها كالكحل سحقا ، وكالطحين دقا ، ثم جلس وجلست ، ولا نبس ولا نبست ، حتى استوفيناه ؛ وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبى زيد من اللوزينج رطلين ، فانه أجرى فى الحلوق ، وأسرى فى العروق ، وليكن ليلى العمر ، يومى النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤى الدهن ، كوكبى اللون ، يذوب كالصمغ ، قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئا . ثم قعد وقعدت ، وجرد وجردت ، واستوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ، ليقمع هذه الصارة (٥) ، ويفنأ (٦) هذه اللقم الحارة ! اجلس ، أبا زيد ، حتى آتيك بسقاء ، يجيئنا بشربة من ماء . ثم خرجت ، وجلست بحيث أراه ولا يرانى ، أنظر ما يصنع به ، فلما أبطأت عليه قام السوادى الى جراره ، فاعتلق الشواء

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٧ وفى اليتيمة ج ١ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ . وفى النسختين اختلاف شديد ، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين .

(٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب الغربى من بغداد .

(٣) الجوذاب : خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أو لحم .

(٤) السماق : حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان .

(٥) الصارة : العطش

(٦) يفنأ : يكن

بأزاره ، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال : ما أكلته إلا ضيفا ، فقال الشواء : هاك وآك ، متى دعوناك ؟ زن يا أخا القحبة عشرين ، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادي يبكي ويمسح دموعه بأردانه ، ويحل عقده بأسنانه ، ويقول : كم قلت لذلك القريد ، أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنت أبو زيد ! » .

وإنما افترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه ، لأنه كان مشغوفا بأدبه ومعنيا بمعارضته ، فقد حدثنا في « التوابع والزوابع » أنه قابل بأرض الجن (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان ، وجرت بينهما مساولة انتصر فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس ، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك ، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ — أما وصف الجارية الذي رضي عنه ابن شهيد ، وقدمه كذلك الى شعراء الجن فاستجادوه ، فهو رسالة قصيرة فيها فقرات تنم عن قلب غزل ونفس طروب ، وفيها كذلك كلمات تليح بمغامز الفتك والجون . وكانت جاريته « أخت نعمة ، وربيبة نعمة ، كأن شعرها على غرتها الغراء ، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلمك بألحاظها ، وتأسوك بألفاظها ، تقابلك من خدها بوردة ، ومن عينها بنرجسة ، كأن ثغرها من جوهر ، وشفتها خيط حرير أحمر ، تقبل عليك بقضيب بان ، ثمرته رمانتان ، وتنفتل عليك بكفل مائج ، كأنه كثيب عالج ... المنظر منظر غلام ، والخبر خبر فتاة ، إن علوتها تدفعت اليك ، أو علتك تداركت عليك ، وأن أعطشك فراشها سقتك من شراب ، إن شئت قلت خمرة أو رضاب ، أو أجاعك عراكها أطعمتك من لسان ، يصل اليك وصول الامان » (١)

٨ — ورسالة عن النار والحطب تمثل فزع أهل الاندلس من البرد ، ولكنها كأكثر ما كتب ، متثاقلة بالصنعة ، خالية من الروح ، وهي رسالة مهداة إلى صديق تفحه بأحمال من الحطب الجزل ، والحطب مما يهدى في تلك البلاد لما يعاني أهلها من قسوة الشتاء . ولننظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود .

« حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلت مجني حطبا دل على نفسه ، وتشظى من يبسه ، فسلطت عليه صاحب الشرر ، ورميته منها ببنات الحديد والحجر ، فوافقه قليلا ، وعاركه طويلا ، فكان لها عجيج ، وله من حرها ضجيج ، ثم خر لها صريعا ، واستولت عليه صبا منيعا ، فبددت شمله وألفت شمله ، واستحالت حية لا تستلذ قتلها ، ترمي بألوان ، وتتشدد بلسان ، فلذعت البرد لذعة ، ونكزته على فؤاده نكزة ، خرها على جبينه ، ومات بها من حينه » (٢)

(١) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٤
(٢) اليتيمة ج ١ ص ٣٩٠

٩ — وبعد، فإن نثر ابن شهيد — على ما فيه من مآخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فإنا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصريه أشد الاختلاف. والنثر الفنى كالشعر له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح مرموق، فقد وصل نثره وشعره إلى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء، وفى هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه واستولى بقوة على عرش البيان.

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل الينا منه إلا شىء قليل، ولم يدون منه إلا الجانب البراق، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب؛ واللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول. ولو وصلت الينا جملة صالحة من نثره الذى جرى فيه على سليقته وفطرته، وانحاز فيه إلى فيض عقله وروحه، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان، تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة وأسدهم رأيا، وأصدقهم فراسة؛ إذا مضى يشرح مزالق الأفكار ومزلات العقول.

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يمتح من قليب فكره، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية؛ إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان.

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد، فإن جهد المقل غير قليل، ولنذكر أننا ننقد ونتنقض، فى سلامة وعافية لم يحلم بها أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود، فعلى ذكراهم تحية وسلام!

زكى مبارك

واجبك ... ! هل أديته ؟
إنك ستؤديه بلا ريب ...
أيها الشباب المثقفون !
إن مجلة (المعرفة) سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم، فليكن تعضيدكم إياه مشجعا له ولنيره .. على إحياء القومية المصرية
هذا واجبكم فأدوه